محمد مهدي الجواهري

1997 - 1897

عاش الشاعر محمد مهدي الجواهري قرناً بكامله. ولد في عام 1897 وتوفي في عام 1997. كان يرغب بقوة في أن يمتد به العمر لكي يدخل في القرن الحادي والعشرين. فيكون بذلك قد شكل صلة وصل غير مسبوقة بين ثلاثة قرون مختلفة اختلافاً كاملاً في شروطها الواحد منها عن الآخر. ويكون بذلك قد أكد، بشخصه وبعمره المديد وبسيرته الشعرية والسياسية، طموحاً عريقاً عنده في أن يرى عراقه قد تحرر من حكم الطغيان، وسلك طريقه إلى الحرية والديمقراطية والتقدم. واني لأتصوره، فيما لو كان امتد به العمر إلى اللحظة التاريخية الراهنة، فرحاً وحزيناً في آن. فرحاً بسقوط الطاغية صدام حسين، وحزيناً لأن هذا السقوط جاء على يد القوات الأجنبية، التي احتلت العراق وأدخلته فيما هو فيه من أزمة ومن صراعات طائفية وإثنية ما تزال تحول دون عودة العراق إلى دوره المشهود له في التاريخ القديم والحديث. وكان سيرى أن الطريق إلى التحرر من الاحتلال الأجنبي هو أيسر وأسرع من التحرر من الاستبداد ومن الطغيان والتحرر من الصراع الطائفي والإثني. عاش الجواهري ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني من بداياتها إلى الوضعية التي انتهت إليها بتنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على البلاد. وكتب عن تلك الثورة، ونظم فيها القصائد منذ بداياتها، ثم في الاحتفالات التي كانت تقام في ذكرى حدوثها. وكان سيرى، لو عاش إلى اللحظة الراهنة، المدى الحقيقي للتواصل الطبيعي والتجاوز في شروط مختلفة لأحداث التاريخ في مراحله المتعددة. غير انه غادر الحياة قبل ثلاثة أعوام فقط من دخول العالم في القرن الجديد. وترك لنا تراثاً كبيراً وغنياً من شعره ومن سيرته الشخصية والسياسية الكثيرة الالتباسات. وتشير سيرته بجوانبها المختلفة إلى أن عالمه هو عالم كبير وشاسع. من هنا صعوبة الكتابة عنه، وعن عالمه الواسع الشاسع المتعدد هذا. ذلك أن شعره لا ينفصل عن حياته وعن أحداث قرن بكامله، هو القرن العشرون الذي عاش فيه من

أوله إلى آخره. وصار بكل المعاني شاهداً كبيراً على القرن وعلى أحداثه وعلى التحولات الكبرى في اتجاهاتها المتناقضة التي جرت فيه.

كان الجواهري، على امتداد حياته، في حالة دائمة من التمرد والثورة على ذاته وعلى الآخرين، والتمرد على المظالم حيثما وجدت. كان يخوض المعارك في كل الاتجاهات، شجاعاً في الاقتحام وشجاعاً في التراجع والانهزام إلى حدود القبول من دون حرج في " السقوط" في الموقع النقيض.

إن عالم الجواهري الكبير الشاسع هذا هو ملحمة حقيقية، ملحمة حياة الشاعر الثائر المتمرد وملحمة العصر الذي عاش فيه.

محور ما أريد قوله عن الجواهري هنا في هذه التداعيات من ذكرياتي عنه ومعه، إنما ينطلق ويتحدد من دون ادعاء، من علاقة نشأت بيني وبينه في بغداد منذ اواخر الأربعينات من القرن الماضي واستمرت من دون انقطاع طوال تلك الاعوام الخمسين. وانتهت في عام 1997، عام وفاته. صلة الوصل الأولى في هذه العلاقة بدأت في شهر كانون الأول من عام 1947 من خلال البريد، عندما أرسلت إلى جريدة "الرأي العام" التي كان يصدرها الجواهري مقالاً بعنوان "لا بد من ثورة" نشره في صدر الصفحة الأولى من الجريدة. وهو مقال كتبته احتجاجاً على هزال الموقف العربي الرسمي والشعبي في مواجهة للواقع الذي كان قائماً في البلدان العربية بأنظمتها الفاسدة وبسياسات حكوماتها المعادية للحرية والممالئة للاستعمار، ونقداً لأحزاب المعارضة ولسياساتها ولخططها ولمشاريعها العاجزة عن الاضطلاع بمهمة التغيير.

لقد فوجئت، منذ الأيام الأولى لوصولي إلى مدينة الكاظمية حيث كان يقيم حسين مروة ابن عم والدي الشيخ أحمد الذي أرسلني لمتابعة دراستي في مدارس بغداد، فوجئت

بذلك القدر من الاهتمام بالجواهري الشاعر في كل الأوساط السياسية والشعبية. كانت قصائده تتردد في كل مكان محفوظة بأكملها عن ظهر قلب برغم صعوبتها وبلاغتها وبرغم طولها. وهي ظاهرة تؤكد في ما يشبه القطع بأن الشعر العظيم، أسوة بالنماذج العظيمة من فروع و أجناس الأدب والفن، لا يحتاج إلى وسائط للدخول إلى وعي الجمهور ووجدانه. هكذا أصبح الجواهري، بالنسبة إليَّ، مركز اهتمامي الأول كشاعر من الدرجة الأولى. ذلك أنني كنت منذ سن مبكرة مولعاً بالشعر العربي وقارئاً مثابراً لرواده الكبار في العصور القديمة وفي العصر الحديث. كما كنت مهموماً بالثقافة بوجه عام. ثم أصبح الجواهري مركز اهتمامي كثائر، لأن الثورة التي كنت أحملها معي من لبنان ضد الأنظمة العربية الفاسدة وضد حكوماتها كان شعر الجواهري يتناغم معها ويدغدغ مشاعري وأحلامي ومشاعر وأحلام جيلي فيها.

ما أن توطدت العلاقة وكثرت اللقاءات بيني وبين الجواهري، إلى الحد الذي صارت جزءاً من غذائي الروحي اليومي، حتى اندلعت الثورة الشعبية في العراق ضد معاهدة " بورتسموث" وضد رئيس الوزراء صالح جبر الذي كان قد وقع مع الحكومة البريطانية المعاهدة التي اتخذت اسم المدينة التي وقعت فيها. اذ اعتبرت تلك المعاهدة من قبل القوى الوطنية العراقية من مختلف التيارات تأكيداً للهيمنة البريطانية على العراق وعلى مصائره وانتهاكاً لسيادته ولاستقلاله. بدأت الثورة في أواخر شهر كانون الثاني من عام 1948. وأطلق العراقيون على تلك الثورة الشعبية اسم "الوثبة". كان الجواهري في ذلك الحين نائباً عن مدينة كربلاء في البرلمان. ورغم أن شكوكاً كثيرة كانت تدور حول الشروط التي رافقت عملية وصوله إلى ذلك الموقع فإنه لم يفقد صلته بالناس ولا فقد الناس ثقتهم به. واستمر يدعو، من موقعه ذاك، الجماهير إلى الثورة. لذلك فإن "الوثبة" كانت، بالنسبة اليه، تحقيقاً لأمل وطموح صارخين عنده، وتلبية لدعوة كرس الكثير من قصائده لإطلاقها، هي الدعوة

إلى الثورة والتمرد. وكان من أوائل النواب الذين أعلنوا استقالتهم من البرلمان احتجاجاً على المعاهدة المشار إليها. وهكذا وجدتني منذ اللحظة الأولى وجهاً لوجه أمام تناقضات شخصية الجواهري في السلوك وفي المواقف العامة والخاصة التي كان ميدان تجليها شعره بالذات ومجمل تفاصيل حياته. وتحضرني في هذا السياق حادثة صغيرة. إذ فاجأنا حسين مروة (أبو نزار) ذات يوم، أم نزار ونزار وأنا، غداة بدء علاقتي المباشرة مع الجواهري برواية خبر صغير عن موقف لا يتصف بالصدقية اتخذه الجواهري إزاء صديقه التاريخي حسين مروة. أزعجني ذلك كثيراً فسألت أبا نزار بدهشة ساذجة: كيف تفسر ذلك؟ وكيف تريدنا أن نفهم ذلك التصرف وأن نتعامل معه؟ وأرفقت السؤالين بقولي : لكن الجواهري برغم ذلك يظل شاعراً كبيراً. فأجاب أبو نزار بشيء من الحزن وبكثير من الحزم : خذوا هذا الذي رويته لكم في الاعتبار كوجه من وجوه التناقض في شخصية الرجل، ولا تتوقفوا عنده في تعاملكم مع الجواهري كشاعر كبير. وأردف قائلاً بأن الأساس في الموقف من الجواهري إنما ينطلق من كونه شاعراً كبيراً. أما التفاصيل في حياته وفي سلوكه الشخصي والسياسي وفي تناقضاته وتقلباته ومزاجيته ونرجسيته فينبغي وضعها في المكان الذي يعود لها، من دون زيادة ولا نقصان. وأضاف بأنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن الجواهري الشاعر المتمرد الثائر هو في الوقت عينه حمّال أخطاء وسقطات، وأن كل الأخطاء والسقطات هي عند الجواهري مما يمكن تجاوزه بوعي من دون ارتكاب فعل التعسف والاعتباط، أو الممالأة والتملق. وقد كان ذلك التنبيه الذي أطلقه حسين مروة محصنا لي، فيما بعد، ضد التعسف في الموقف من الجواهري الشاعر ومن سائر الشعراء. وفي الواقع فقد كنت مقتنعاً، من خلال معرفتي بالجواهري ومن خلال قراءتي لكل ما تضمنته دواوينه من قصائده المتعددة المواضيع والمناسبات، بأن هذا الشاعر الكبير هو شاعر كبير في الدرجة الأولى، وأن شعره هو سجل لحقبة طويلة من تاريخ العراق ومن تاريخ العالم العربي

امتدت إلى ثلاثة أرباع القرن العشرين. وشعره في مراحله المختلفة هو في الوقت عينه سجل لحياة شخصية متمردة فذة في كل انفعالاتها وفي كل تناقضاتها، هي بالتحديد شخصية الجواهري الشاعر.

وإني لأذكر من قصائد تلك الفترة المبكرة من تعرفي على الجواهري وعلى شعره وعلى الدور الذي كان يمارسه شعره في الأوساط الشعبية وفي الأوساط السياسية، بعضاً مما كان يتردد على الألسنة في كل المحافل. القصيدة الأولى هي قصيدة "طرطراً ". وهي . كما يقول الجواهري . من النمط الساخر ومن الوزن المعروفين في القصيدة "الدبدبية" المشهورة التي قيلت في العهد العباسي، ومطلعها :"أي دبدبا تدبدبي أنا علي المغربي". وقصيدة طرطرا هي، كما يقول الجواهري، من وحي الظروف التي نشأت خلال تطبيق مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدولة رقم 56 من عام 1941. وقد طبق ذلك المرسوم على جريدة "الرأي العام" التي كان يصدرها الجواهري في اليوم الأول من شهر آب من عام 1945. إذ عطلت بموجبه الجريدة قرابة شهرين.

يقول الجواهري في هذه القصيدة :

أي طرطرا تطرطري تقدمي تأخري

تشيعي تسنني تهودي تنصري

تكردي تعربي تهاتري بالعنصر

تقلبي تقلب الدهر بشتى الغير
تصرفي كما تشائين ولا تعتذري

لمن للناس وهم حثالة في سقر

ان أخا طرطر من كل المقاييس بري !

القصيدة الثانية هي قصيدة "الى المناضلين"، أنشدها الشاعر، كما يشير إلى ذلك في ديوانه، في المؤتمر الأول لحزب "الاتحاد الوطني" الذي كان هو أحد مؤسسيه وكان عضواً في لجنته المركزية. وقد نشرت القصيدة في جريدة "الرأي العام " في 30 أيار من عام 1946.

يقول الجواهري في هذه القصيدة :

اطلوا كما اتقد الكوكب ينور ما خبط الغيهب

وسيروا وإن بعدت غاية وشقوا الطريق ولا تتعبوا

ومدوا سواعدكم إنها معين من الجهد لا ينضب

القصيدة الثالثة هي التي تحمل اسم "المقصورة ". وهي من أطول قصائد الجواهري وأكثرها تعبيراً عن مشاعره وعن مواقفه. وقد نظمها الشاعر في اواسط عام 1947 عشية انفجار الانتفاضة ضد معاهدة "بورتسموث". أختار منها هنا بعض الأبيات المتفرقة :

متى ترعوي أمة بالعراق تساق إلى حتفها بالعصا

تذري على الغيم ذرو الهشيم ويعرقها الذل عرق اللحا[1]

يقولون إن يداً في الغيوب تدير على الارض حكم السما

ولما يزل مثل سائر على الناس يجري بايدي سبا

[1] عرق معناها أزال، واللحا معناها قشر الشجرة.

وتحريق " لوط" بذنب أتى وأخذ "ثمود" بسقب رغا[2]

فما بال كف القضاء تدور على بلد ظل حتى اختزى

هذه القصائد الثلاث، التي كتبها الجواهري في ظروف تلك المرحلة الحبلى بالأحداث هي التي عرفتني من دون كبير جهد إلى الجواهري الشاعر والثائر، وأدخلتني منذ بدء تعرفي إليه في عالمه الكبير الشاسع.

لقد شكلت "الوثبة" في حياة الجوهري وفي حياة العراق حدثاً كبيراً تؤرخ به مرحلة عاصفة من نضالات الشعب العراقي ومن آلامه وعذاباته، ومن مرارات الهزائم والنكسات التي واجهته. وقد سجلت في تلك الوثبة بطولات كثيرة من النوع الذي قدم فيه المناضلون العراقيون للعالم نماذج فذة نادرة. وسالت دماء كثيرة. وسقط شهداء عديدون. وأصيب الجواهري بفقد شقيقه جعفر، الذي استشهد في معركة الجسر الشهيرة التي وقعت في اليوم الأول للمظاهرات. كان جرح الجواهري بليغاً، مثلما كان عليه جرح الشعب العراقي. ورغم ان المظاهرات الأولى كانت كافية، كما يقول الجواهري، لدفع الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله، إلى حل المجلس النيابي الذي كان الجواهري عضواً فيه واستقال منه قبل حله، وإقالة الحكومة التي وقعت المعاهدة التي شكل توقيتها شرارة الثورة، فإن تلك المظاهرات استمرت بعنف أكبر، واستمر سيل الدماء فيها غزيراً. ويتساءل الجواهري في الجزء الثاني من كتابه "ذكرياتي"عن السبب الذي حال دون الاستفادة من ذلك الموقف، حقناً للدماء وسعياً للحصول على مكاسب ديمقراطية في اللحظة التاريخية الملائمة. ولست أدري إذا كان تساؤل الجواهري ذاك يعود إلى ذلك التاريخ بالذات، كما يقول هو، أم أنه جاء وليد

[2] السقب ولد الناقة، والرغاء صوت البعير.

اللحظة التي كان يكتب فيها ذكرياته عن تلك المرحلة العاصفة من تاريخ العراق. إلا أن مصدر التساؤل عند الجواهري هو ما اتصفت به الأحداث التي أعقبت الوثبة في مرحلتيها : المرحلة الأولى التي ساد فيها نوع من الحرية لم يكن قد شهد العراق مثيلا له في تاريخه، في ظل الحكومة التي كان رئيسها رجل الدين محمد الصدر الخالية من الرموز المعروفة بولائها للبلاط الملكي من أمثال نوري السيد وفاضل الجمالي وسواهما. وقد كانت تلك المرحلة أقرب إلى الفوضى منها إلى الحرية. فهي كانت مرحلة مليئة بالصراعات بين التيار الشيوعي والتيار القومي والتيار الديمقراطي الليبرالي، الصراعات التي قادت الانتفاضة إلى الفشل والانتكاس بعد ستة أشهر من الفوضى التي عمت البلاد وشلت الحياة فيها. أما المرحلة الثانية فهي التي ساد فيها العنف من جديد، على أنقاض المرحلة السابقة التي سادت فيها الحرية والفوضى والصراعات. واتخذ ذلك العنف أكثر أشكاله بشاعة. فقد غصت السجون بالمناضلين من قادة الأحزاب ومن المثقفين. وعلقت المشانق لقادة الحزب الشيوعي، الأمين العام فهد ورفاقه في القيادة حسين محمد الشبيبي وزكي بسيم ويهودا صديق.

لم تستطع الحركة الوطنية بسبب تعدد وتناقض اتجاهاتها، وربما بفعل الأوهام التي راودت الكثيرين من قياداتها بحلم الوصول إلى السلطة أو إلى جزء منها، أن تستفيد من الفرصة التاريخية النادرة ولو بالحدود الدنيا التي كانت قد ولدتها الوثبة. وهذا ما يشير إليه الجواهري في ذكرياته. إذ لم تكد تمضي بضعة أشهر على هذه الانتفاضة حتى استعاد البلاط الملكي وأنصاره المبادرة واستحضر كل إمكاناته. وهي كانت كثيرة وكبيرة. وشكل الوصي على العرش عبد الإله حكومة جديدة من نوع ما كان سائداً قبل الوثبة. وبدأ العد العكسي. ولست هنا في معرض التأريخ لتلك المرحلة من حياة العراق والتأريخ لحركته

الوطنية. لكنني أردت فقط ان أسجل بعض ذكريات ذات صلة بمرحلة من حياة الجواهري، كنت فيها شاهداً ملء السمع والبصر والوجدان.

في المأتم الكبير الذي أقيم في جامع "الحيدر خانه " لجعفر الجواهري شقيق الشاعر بدأت صفحة جديدة من حياة الجواهري ومرحلة جديدة من شعره. كنت إلى جانب الجواهري في ذلك الاحتفال برفقة حسين مروة ومحمد شرارة وأصدقاء آخرين. كنا نعرف أنه سيلقي قصيدة مدوية. وكان العراقيون ينتظرون ذلك منه. لذلك جاءوا إلى منطقة "الحيدر خانه " في شكل تجمع هائل العدد. كنا داخل القبو الذي منه أطل الجواهري على الجموع المحتشدة منشداً رائعته المعروفة في رثاء شقيقة. وما يزال صوت الشاعر الرخيم يرن في مسمعي كما لو أنه ماثل أمامي الآن بقامته الفارعة:

أتعلم أم أنت لا تعلم بأن جراح الضحايا فم

فم ليس كالمدعي قولة وليس كأخر يسترحم

يصيح على المدقعين الجياع أريقوا دماءكم تطعموا

ويهتف بالنفر المهطعين أهينوا لئامكم تكرموا

إلا أن القصيدة كانت البداية في مرحلة جديدة من حياة وشعر الجواهري. لكنها لم تكن الشكل الوحيد الذي كان الجواهري يعبر بواسطته عن أفكاره وعن مشاعره وعن الثورة المتفجرة في وجدانه. فقد كانت افتتاحياته في جريدة "الرأي العام "قطعاً فنية حملها الشاعر كل مشاعره، وبث فيها دعوته إلى الثورة والى العقل في آن. كان الجواهري مهموماً بالمستقبل مثل العديد من مثقفي تلك الحقبة من تاريخ العراق. كان قلقاً من الحاضر في ما يشبه اليأس من إمكانية الإصلاح، مترقباً حدوث أمر خطير كان جزء منه يعد في الخفاء.

لذلك فهو، حين يشير في كتاب "ذكرياتي "الى أنه رفض عرضاً قدمه له الوصي على العرش يحفظ له مكانه في المجلس النيابي كنائب عن كربلاء عندما ذهب ليشكره على مؤاساته له بشقيقه جعفر، إنما كان يعبر عن تلك الحالة التي كان يراها بعين الشاعر الحساسة الناقدة الساهرة على الحاضر والمستقبل. كان يريد الجواهري للثورة أن تستمر في شكل مختلف عن السابق وبقيادة مختلفة. لكنه لم يكن في الموقع الذي يؤهله للإسهام في صياغة تلك الخطة، وفي اختيار القيادة القادرة على تحمل المسؤوليات التاريخية فيها. ورغم أنه كان قريباً من الحزب الشيوعي ومن معظم قياديه، لا سيما "فهد "قبل أن يدخل السجن، وكان متفقاً معه في أمور أساسية، إلا أنه لم يكن يرى في الحزب الشيوعي منفرداً ما يمكنه القيام بتلك المهمة. ولم يكن يرى في القوى الأخرى المناهضة والمنافسة للحزب الشيوعي ولا من القوى الديمقراطية الأخرى اية قدرة على القيام بتلك المهمة. لكنه بانتظار ولادة تلك القوى المؤهلة لتلك المهمة، ظل صديقاً للحزب الشيوعي. ولعل واحدة من أكثر قصائده تأكيدا لعلاقته بالحزب الشيوعي بخصوصيتها هي تلك التي يحيي فيها عيد الحزب الشيوعي العراقي بعنوان :"سلاماً عيد النضال" التي يقول فيها:

حماة النضال وجيل يغور على محور من شموس يدور

يسير ويعرف أين المصير له ألف نجم بنجم يغور

سيملي إرادته إذ يثور وتجتث يوم يثور الجذور

في تلك الفترة بالذات (1948) توسط لي حسين مروة للعمل في جريدة "الرأي العام "كصحافي. عملت في البدء كمندوب برلماني قبل أن يجري حل البرلمان. ثم عملت كمصحح في الجريدة بعد ذلك. لكنني توقفت عن العمل خلال الأحداث. وانتقلت إلى جريدة "الأهالي" التي كان يصدرها الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة الشخصية الديمقراطية

المرموقة كامل الجادرجي. ولم أبق في العمل فيها إلا لمدة قصيرة. ثم انصرفت بعد ذلك إلى الدراسة. وكان يرأس تحرير جريدة "الرأي العام" مسؤول شيوعي اسمه رشيد بكتاش. وكان يعمل فيها كصحافي متجول شاب اسمه صالح، فهمت من علاقتي معه أنه قريب من الحزب الشيوعي. وقد قاسى ذلك الشاب الكثير من الاضطهاد بسبب كونه يهودياً على يد منضد المطبعة القومي الشوفيني. وكثيراً ما كنت أتدخل للدفاع عن صالح عندما كان يتعرض لاحتمال الضرب، أو حتى للضرب في بعض الأحيان من قبل ذلك الرجل. فقد ساعدني عملي في "الرأي العام" خلال تلك الفترة القصيرة على التعرف عن كثب على الجواهري الذي كان يعاملني كولد من أولاده. ومن خلال ذلك الموقع، ومن خلال علاقتي بكلّ من الجواهري وحسين مروة وبعدد من المثقفين العراقيين واللبنانيين أذكر منهم على وجه الخصوص محمد شرارة وجعفر الخليلي وحسن الأمين ومحمد حسن الصوري وناجي جواد الساعاتي وعزيز أبو التمن، تمكنت من الدخول بعمق في نسيج الحياة العراقية السياسية والاجتماعية والثقافية. وبمقدار ما كانت تلك المعرفة تزيدني تعلقاً بالعراق وبأهله وبمثقفيه من أمثال الجواهري، كنت أزداد شعوراً بالحاجة إلى ثورة تطيح بأنظمة الحكم كلها في البلدان العربية، وتقلب أوضاع مجتمعاتنا رأساً على عقب، لعل ذلك تفتح آفاقاً جديدة تتيح لتلك الطاقات المخزونة والمهدورة في شعوبنا أن تشق الطريق إلى حرية بلداننا وتقدمها. وتأكد لي بالمشاهدة الحية، ومن خلال ما سمعته من الجواهري وحسين مروه، وما عرفته من خلال الأصدقاء الكثر لا سيما من ضباط الإحتياط الذين شاركوا في الحرب وأجبروا على الهزيمة، كم كان حجم تلك الهزيمة في حرب أيار من عام 1948 لـ "تحرير فلسطين" كبيراً. كانت الخيانة، في ذلك الزمن الرديء، تجري أمام عينيَّ وأمام أعين الجميع من أبناء جيلي، وكانت تراكم الغضب في داخلنا. وكانت كتابات الجواهري، وكل الكتابات التي غصت بها صفحات جريدة "الرأي العام"، وجريدة "الأهالي"، ومجلة "الحضارة"

لصاحبها محمد حسن الصوري، وجريدة "الاحرار" لصاحبها سعد صالح، وجريدة "الشعب" لسان حزب الشعب والصحف التي كان يصدرها الحزب الشيوعي، وتلك التي كان يصدرها الديمقراطيون العراقيون المستقلون في ظل حكومة السيد محمد الصدر الانتقالية، ثم في ظل الحكومة التي حلت محلها بعد الانتكاسة، كانت كتابات الجواهري وكتابات السياسيين والمثقفين في ذلك الزمن تشير بوضوح إلى تلك الخيانة للقضية الوطنية والقومية وتشير إلى الخونة بأسمائهم. ولعل ذلك الحجم من الاستنكار لفعل الخيانة هو الذي سرع في الانتكاسة التي أطاحت كل ما كان قد تحقق، وكل ما كان يتوهم الكثيرون أنه سيتحقق في مستقبل قريب، لجهة الإصلاح في الأوضاع السائدة ولجهة تغيير النهج ولجهة ترسيخ الديمقراطية! وكان أول ما واجهته الحكومة الجديدة التي شكلها الوصي على العرش عبد الإله، بديلاً من حكومة "الوثبة" الانتقالية، التغطية بكل الوسائل على الخيانة المرتكبة في فلسطين، وتحويل التهمة إلى الحزب الشيوعي وإلى القوى الديمقراطية الأخرى. وكان عقاب الحزب الشيوعي إعدام قادته الذين كانوا يرسفون في السجن. أما الآخرون من الديمقراطيين فقد غصت السجون بقياداتهم.

وفي الوقت الذي كان الشيوعيون يتعرضون لتلك الحملة الهوجاء القاسية، كانت تنظم حملة موازية ضد اليهود، استناداً إلى ما أشيع في حينه عن مؤامرة تجسس على العراق لصالح إسرائيل كان يقودها رجل أعمال يهودي اسمه "عدس"، أحيل إلى المحاكمة وصدر حكم بإعدامه ونفذ فيه حكم الإعدام شنقاً. وانتهت تلك الحملة المنظمة ضد اليهود بغزوة همجية اتخذت طابعاً "شعبياً" ضد أحيائهم السكنية وضد محلاتهم التجارية وضد مصالحهم الاقتصادية. ويقال إن الحركة الصهيونية كانت تشجع بعض تلك الهجمات بهدف تسهيل هجرة اليهود إلى إسرائيل. وقد نظمت عملية تهجير اليهود بالكامل بكل كفاءاتهم وطاقاتهم إلى إسرائيل التي كانت في مرحلة تأسيسها بحاجة ماسة إليهم وإلى أمثالهم. جرى تهجير

اليهود من دون أي تمييز بين من هو صهيوني عميل لإسرائيل وبين من هو تقدمي مرتبط بوطنه العراق. وكان بين المهجرين أدباء وشعراء وموسيقيون وعلماء. وكان عدد من أولئك ديمقراطيين ويساريين وشيوعيين معروفين. ويذكر الجواهري في كتابه "ذكرياتي" تفاصيل مذهلة حول تلك المؤامرة. ويشير إلى أن عدد اليهود الذين هجروا بلغ المئة وخمسين ألفاً. وفعل الأمر نفسه في ذلك الحين معظم الحكومات العربية. وكان ذلك العمل في وعيي لتلك الفترة وفي وعيي الحالي استكمالاً لفعل الخيانة التي ارتكبها الحكام العرب في القضية الفلسطينية، ومدخلاً لمزيد من فعل الخيانة أو ما يشابهها على امتداد نصف قرن.

لماذا كل هذا الاسترسال في الحديث عن أوضاع العراق في تلك الفترة الحرجة من تاريخه في معرض الكتابة عن الجواهري الشاعر ؟ وجوابي عن هذا التساؤل هو أن الجواهري، الذي كان في شعره وفي جريدته "الرأي العام " وفي مجمل مواقفه السياسية جزءاً من تلك الأحداث والوقائع، تستحيل الكتابة عنه بمعزل عن الإشارة إلى تلك الأحداث والوقائع.

كان عام 1948 في مرحلتيه اللتين أشرت إليهما آنفاً مرحلة النهوض في أعقاب "الوثبة" ومرحلة الانتكاسة التي ساد فيها القمع، عاماً حافلاً بالأحداث الثقافية. إذ كثر فيه الإبداع، وازداد عدد المبدعين في مجالات الأدب والفن في أجناسهما المختلفة. وازدهر النشاط الثقافي في المنتديات وفي دور السكن وفي المقاهي العامة. وازدهر إصدار الكتب وتعميمها. وكان الجواهري كعادته أكثر نجوم تلك النشاطات تألقاً. فهو لم يغادر، حتى في أكثر اللحظات صعوبة ودقة، أياً من انفعالاته الشعرية والوجدانية وأياً من اهتماماته في شتى مجالات النشاط الإنساني، العام منها والخاص. ظل صوته مرتفعاً

ومدوياً. وظل جمهوره يكبر ويتسع من دون حدود. وكنت مرافقاً له في الكثير من تلك النشاطات مع عدد من أصدقائه وأصدقائي من المثقفين اليساريين. والجدير بالذكر أن الجواهري الشاعر الثائر المتمرد على الظلم والطغيان في كل مظاهرهما، وفي كل مكان برزا فيه، بقي، في كل الظروف، شاعر الحب والغزل وشاعر الجمال في آن. فهو فنان في حياته وفي إبداعه، وفردي وذاتي ونرجسي إلى الحدود القصوى في سلوكه العام. تميز شعره، كما تميزت مواقفه العامة والخاصة، بالجرأة ومناقضة ومعاكسة السائد من التقاليد والأحكام. أليس هو القائل، من بين العديد من شعره الحر الماجن :

نهداك والصدر ثالوث أقدسه لو كان يجمع تثليث وتوحيد

وتجتمع في وجدان الجواهري في اللحظة ذاتها أهواؤه الشخصية والفنية مع حالات تمرده وثورته ضد الحاكمين، وضد المظالم، وضد الخنوع وضد التردد وضد الهزائم.

ويصعب تعداد القصائد التي دون فيها وقائع وأحداث عام الوثبة (1948) الصعب، وانفعالاته وهمومه وهواجسه وقلقه وأحلامه المتكسرة.

ففي قصيدته "يوم الشهيد"، التي نظمها بمناسبة أربعينية شقيقه جعفر يعيد التذكير بأحداث ذلك اليوم وبالوعد الذي يبشر به دم الشهيد. يقول الجواهري في مطلع هذه القصيدة :

يوم الشهيد تحية وسلام بك والنضال تؤرخ الأعوام

بك والضحايا الغر يزهر شامخاً علم الحساب وتفخر الأرقام

بك يبعث الجيل المحتم بعثه وبك القيامة للطغاة تقام

وبك العتاة سيحشرون، وجوههم سود، وحشو أنوفهم إرغام

ويتابع في قصيدة " الشهيد قيس "، الحداء نفسه في مناجاة الشهداء. والشهيد قيس الآلوسي هو واحد من شهداء معركة الجسر التي استشهد فيها شقيق الجواهري جعفر. ويريد الجواهري في كل ما نظمه من قصائد حول الشهداء ألا يكون حزنه على استشهاد شقيقه حزن شقيق على شقيقه وحسب، بل حزن مناضل على استشهاد مناضل، وأن يكون النشيد الذي يتوجه به إلى الشهداء نشيد الحرية للشعب.

في صيف العام 1948 يبدأ العد العكسي في الوضع السياسي، ويبدأ الجواهري توجيه النذير إلى الشعب العراقي على طريقته الساخرة مستعيداً نفس قصيدته السابقة "طرطرا ". ويكتب قصيدة "يا ثمر العار " التي يقول فيها :

أي جربا تجربي تكتلي تحزبي

كإبرة البحار في عاصفة تذبذبي

وكالطيور في السماء حرة تقلبي

أي جربا ويحك ما أصلف وجهك الغبي

أي جربا يا بهلوان الملعب المجرب

يا ضحكة جاد بها الدهر على مكتئب

يا فرحة لمعدمين فرحة عن كثب

يا ثمر العار ويا جريمة التسيب

يا أمة مغلوبة لا جذم مغلب

يا بومة خائفة من خائف مرتقب

من مارق متهم وخائن مرتكب

ثم تتوالد القصائد تعبيراً عن اليأس والإحباط مرفقة دائما بالدعوة إلى الثورة من جديد.

وكانت أولى قصائده في هذا الاتجاه قصيدة "أطبق دجى"، التي كان قد نظمها في أوائل عام 1941، وأعيد إحياءها في ظل أجواء القمع التي سادت إثر الانتكاسة التي أعقبت "الوثبة". وتعكس هذه القصيدة أجواء تلك المرحلة السوداء من حياة العراق. يقول الجواهري في تلك القصيدة :

أطبق دجى أطبق ضباب أطبق جهاماً يا سحاب

أطبق دخان من الضمير محرقاً أطبق عذاب

أطبق دمار على حماة دمارهم، أطبق تباب

أطبق جزاء على بناة قبورهم أطبق عقاب

أطبق نعيب يجب صداك البوم، أطبق يا خراب

أطبق على متبلدين شكا خمولهم الذباب

لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب

ولفرط ما ديست رؤوسهم كما ديس التراب

القصيدة الثانية التي نظمها الجواهري في هذا الاتجاه من الإحساس باليأس هي قصيدة "ترنيمة الجياع" (1951)، وفيها تأكيد على استمرار سيادة الظلام، وفيها نقد للشعب الذي لا يستفيق من سباته. يقول الجواهري في هذه القصيدة :

نامي جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعام

نامي فإن لم تشبعي من يقظة فمن المنام

نامي جياع الشعب نامي الفجر آذن بانصرام

والشمس لن تؤذيك بعد بما توهد من ضرام

والنور لن "يعمي " جفوناً قد جبلن على ظلام

نامي كعهدك بالكرى وبلطفه من عهد "خام"

أما القصيدة الثالثة في الاتجاه ذاته فهي التي نظمها الجواهري في العام السابق على الانتفاضة الجديدة (1952). وهي القصيدة التي ألقاها الجواهري في مؤتمر المحامين والتي يحث فيها على الثورة والتمرد. يقول الجواهري في هذه القصيدة :

سلام على حاقد ثائر على لا حب من دم سائر[3]

يخب ويعلم أن الطريـ ق لا بد مفض إلى آخر

كأن بقايا دم السابقيـ ن ماض يمهد للحاضر

كأن رميمهم أنجم تسدد من زلل العائر

[3] اللاحب : الطريق الواضح

سلام على مثقل بالحديد ويشمخ كالقائد الظافر

مفاتيح القيود على معصميه مفاتيح مستقبل زاهر

في عام 1949 سافر الجواهري إلى باريس في عداد وفد من الصحفيين. وحين يعود إلى عراق ذلك الزمن الحرج فإنه يحمل معه أجواء باريس وما أوحاه به له تاريخها الثوري وتقاليدها الثقافية، وكل ما فيها من جمال. وتتمخض مشاعره في ثورة عارمة من القصائد المتتالية، عن "باريس أم النضال"، وعن "انيتا" الصبية الفرنسية التي عشقها ونظم فيها ملحمة بكاملها هي من أروع ما نظمه. وفي قصيدة "باريس" وفي ملحمة "أنيتا"، يدخل الجواهري على طريقته وبأسلوبه باب الحداثة في الشعر، حين يتلاعب بالقافية وبالموسيقى وبالتفعيلة وحين يعطي للقصيدة وحدتها المتكاملة في الموضوع وفي الفكرة وفي الصورة وفي كل ما يتصل بها جميعها من أنساق شعرية.

يقول الجواهري في قصيدة "باريس":

تعاليت "باريس"... أم النضال

وأم الجمال... وأم النغم

تذوب فوق الشفاه الألم

وسال الفؤاد... على كل فم

تعاليت "باريس" ان السنين

بما تعلمين... وما تجهلين

وما تستلذين اذ تحملين

بوقع الشكاة... ورجع الأنين

ونشر الزهور على الفاتحين

وثل العروش... وضرب الوتين

وما سن "روسو"... و"لامارتين"

أما ملحمة أنيتا" فهي تجربة في الحياة وتجربة في الشعر جديدة في نوعها بالنسبة إلى الجواهري. وهو لا ينظمها في زمن واحد، بل في عدة أزمنة. ويصعب الاستشهاد بمقاطع منها لأن اقتطاع أبيات أو مقاطع منها سيكون متعسفاً. لذلك أكتفي بالإشارة إليها من دون الدخول لا في تفاصيل أحداثها ولا في تقديم أي مقتطفات منها.

تحول العراق في النصف الأول من عام 1949 إلى معتقل كبير بأشكال مختلفة. وذهبت أدراج الرياح تضحيات المناضلين، وتبخرت تلك النسمة من الحرية التي عاشها العراقيون لأول مرة في تاريخهم، تاريخ الانتداب وتاريخ الاستقلال. وعاد الذين خرجوا من مخابئهم الثورية تحت الأرض بعيداً عن ضوء الشمس، عادوا إلى حيث كانوا يقبعون، يقودون من وراء الستار معارك الحرية والتقدم على صعيدي الفكر والسياسة. وعاد اسم بهجت عطية رئيس التحقيقات الجنائية (المخابرات) إلى "بهجته" السابقة! وعاد نوري السعيد وأرشد العمري وفاضل الجمالي والزمرة كلها تحت خيمة الوصي الأمير عبد الإله على عرش العراق، باسم الملك الصغير فيصل الثاني الذي كان لا يزال في سن الطفولة. عادوا جميعهم إلى المكان الذي كانوا فيه يقررون مجتمعين ومنفردين، بوحي أو بتنسيق أو بتواطؤ مع الخارج، مصائر العراق ومصائر شعبه ومستقبلهما. . في ذلك الوقت بالذات ألقي القبض على عدد من المثقفين والسياسيين وأودعوا السجن. ونزعت عن حسين مروة

الجنسية العراقية، بعد أن كانت قد أقفلت جريدته "السيار" التي لم يصدر منها سوى عدد واحد، وكان لي فيه مقال بعنوان: "لن تغفر الشعوب". كان يحدث كل ذلك بتسارع. لكن لقاءاتنا مع الجواهري ومع المثقفين ومع أهل السياسة والصحافة لم تنقطع. كان ذلك هو الشكل الوحيد الذي كنا نحاول بواسطته تأكيد وجودنا وحضورنا وتحدي تلك الموجة العاتية من القمع التي كانت تزحف بكل ثقلها وحدتها باتجاه الأحرار من كل مستوى وموقع. وكنت قد انتميت إلى الاشتراكية منذ مطلع العام 1948 وأصبحت شيوعياً بالفكر وبالموقف. وكنت قد بدأت أكتب في الصحافة الأدبية. وكانت علاقاتي مع الجواهري ومع كبار المثقفين والسياسيين قد بدأت تعطيني موقعاً أكبر من حجمي الحقيقي وأكبر من عمري.

يطول الحديث إذا ما دخلت في تفاصيل تلك اللقاءات التي جمعتني بالجواهري وبكبار مثقفي ذلك الزمن. لكنني لا أستطيع إلا أن أشير إلى حدثين أثّرا فيّ كثيراً:

الحدث الأول هو اعتقال الأديب اليساري محمد شرارة، الذي كانت له عندي وعند الكثيرين مكانة كبيرة. وبرغم أن الوضع كان صعباً، إلا أن علاقات عزيز أبو التمن نجل الزعيم العراقي جعفر أبو التمن أحد أبطال ثورة العشرين، وهي كانت علاقات واسعة قد هيّأت لنا فرصة زيارة محمد شرارة في السجن. وكنا في الزيارة، عزيز أبو التمن والأديب العصامي ناجي جواد الساعاتي وأنا. وكان يرافقنا بعض أفراد عائلة شرارة. وكان السجن عبارة عن غرفة متوسطة المساحة تتسع لأربعين سجيناً بالعدد، مفتوح بابها على مصراعيه إلى جانب مرحاض كانت تتسرب منه إلى الغرفة وإلى الباحة المجاورة لها رائحة بشعة كالسم. كان المشهد موجعاً ومثيراً للغضب والقرف.

أما الحدث الثاني فكان مع الجواهري في نادي "المسبح" في كرادة مريم في حفل تكريم الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب. وكان الجواهري مدعواً لإلقاء قصيدة في المناسبة بحضور حشد كبير من عليّة القوم ضم وزراء وشخصيات سياسية واجتماعية وعسكرية. وكان في مقدمة الحضور الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله. ذلك أن النادي كان في الأساس ناد للضباط. وقد تمكّن كل من عزيز أبو التمن وناجي جواد من تأمين دعوات لنا للمشاركة في الاحتفال. وهكذا ذهبنا إلى النادي في سيارة "البويك" السوداء التي كان يقودها عزيز أبو التمن. وكنا أربعة: الجواهري وأبو التمن وناجي جواد وأنا. وكانت طاولتنا مخصّصة لنا نحن الأربعة. وعندما عاد الجواهري من إلقاء قصيدته أمسك الورقة المكتوبة عليها القصيدة ومزّقها بتوتر وألقاها بهدوء وبحذر تحت الطاولة. فتناولت المزق ووضعتها في جيبي من دون أن أدع أحداً ينتبه لما فعلت. ثم خرجنا نحن الأربعة بعد انتهاء الاحتفال في الطريقة ذاتها التي ذهبنا فيها إلى النادي وفي السيارة ذاتها وأوصلنا الجواهري إلى منزله. ثم ذهبنا إلى بيت عزيز أبو التمن لقضاء بعض الوقت وللبحث في النتائج التي كنا نتوقعها للحدث الجواهري. وعندما علمنا في اليوم التالي ما كنا نتنبأ باحتمال وقوعه، أي اعتقال الجواهري، سارع أبو التمن إلى اجراء اتصالاته مع بهجت عطية من أجل تأمين زيارة الجواهري في المعتقل. وهكذا ذهبنا لزيارته. وكان يقيم في غرفة عادية منفرداً فيها من دون إزعاج ومع كل التكريم، كما يؤكد هو ذاته في كتاب "ذكرياتي". لكن الجواهري لم يبقَ طويلاً قيد الاعتقال. إذ خرج منه لعدم ثبوت التهمة بسبب عدم وجود نص القصيدة بيد المحققين. وكان حسين مروة قد أُبعد إلى لبنان. وكنا نحن العائلة نستعد للحاق به. وبالفعل فقد سافرنا بعد أسبوع من ذلك الحدث. وفور وصولنا إلى بيروت انخرطنا أبو نزار ونزار وأنا في عملية ترتيب الأوراق الممزقة التي تحوي القصيدة. وأعدنا كتابتها وأرسلناها إلى جريدة "التلغراف" المعارضة لصاحبها نسيب

المتنبي، التي نشرتها في الصفحة الأولى مع عنوان على امتداد الصفحة كلها. ويبدو أن نشرها قد أدى إلى إعادة الجواهري إلى السجن من جديد. ولطالما ذكرني الجواهري بأنني كنت السبب في عودته إلى السجن، بسبب نشر القصيدة في بيروت.

واذ أشير إلى تلك التفاصيل حول ذلك الحدث فلأن الجواهري تعمّد، برغم روايتي هذه للحدث مرات عديدة، بدءاً من عام 1949 لدى مجيئه إلى لبنان عائداً من وارسو وباريس، وصولاً إلى المرحلة التي كان يكتب فيها ذكرياته، تعمّد أن يروي ما حدث في شكل مختلف مغاير للحقيقة بالكامل. فهو يقول في كتاب "ذكرياتي" انه عندما عاد من إلقاء قصيدته، وبعد أن مزق القصيدة لم يجد من يتحدث إليه. وخرج من نادي "المسبح" يبحث عن سيارة أجرة تنقله إلى منزله. ولم يكن ذلك صحيحاً بالمطلق. والصحيح هو ما أشرت إليه آنفاً. ولطالما تساءلت عن السبب في تغييب الحقيقة وتزوير الوقائع في رواية ذلك الحدث في مجمل أحاديثه عن تلك الحقبة، فلم أفلح. وحين صدر كتاب الجواهري "ذكرياتي" بجزئيه اقتنعت أن تغيير الوقائع والأسماء و التواريخ هو جزء من طريقة الجواهري في روايته للأحداث. فالكتاب المشار إليه لا يصلح ان يكون سيرة ذاتية للجواهري، ليس لنرجسية الجواهري فيه وحسب، فهي من سمات الفنانين والعظماء من بني البشر، بل لكثرة ما فيه من أخطاء، بعضها مقصود كما بدا لي وبعضها هو من نتاج ضعف الذاكرة. علماً بأن ذاكرة الجواهري نادرة المثال.

على أن قصيدة الجواهري في تكريم هاشم الوتري تبقى بذاتها في ذلك التاريخ حدثاً شعرياً وسياسياً بالغ الأهمية. فهي كانت اختراقاً شجاعاً للسائد من مظالم ومن تقاليد رثة تميز به الجواهري في كل الظروف من دون أن يحسب أي حساب للعواقب.

يقول الجواهري في تلك القصيدة:

إيه عميد الدار كل لئيمة لا بد واجدة لئيماً صاحا

ولكل "فاحشة" المتاع ذميمة سوق تتيح لها ذميماً راغبا

ولقد رأى المستعمرون فرائساً منا، وألفوا كلب صيد سائبا

فتعهدوه، فراح طوع بنائهم يبرون أنياباً له ومخالبا

أعرفت مملكة يباح شهيدها للخائنين الخادمين أجانبا

مستأجرون يخربون بلادهم ويكافأون على الخراب رواتبا

لم تنقطع علاقتي بالجواهري بعد العودة إلى لبنان. إلا أنها كانت علاقات متقطعة. فقد زار لبنان أربع مرات بعد تعرفي إليه بدءاً من عام 1948 وصولاً إلى عام 1991. ذلك ان زياراته إلى لبنان كانت تتكرر قبل ذلك في مناسبة ومن دون مناسبة. الزيارة الأولى للجواهري إلى لبنان بعد عودتي من العراق كانت في أواخر عام 1949 في طريق عودته من مؤتمر المثقفين العالمي، في وارسو الذي كان دعا إليه مجلس السلم العالمي. كان اللقاء مع الجواهري في ذلك الحين في منزل حسين مروة في بيروت. وكان حاضراً في تلك السهرة كل من نزار مروة ومحمد دكروب وأنا. تحدث الجواهري في ذلك اللقاء عن سفرته وعن لقاءاته وعن بعض مغامراته بما في ذلك تلك التي قام بها في باريس في تلك السهرة الجميلة. وكان لباريس عاصمة الثقافة والثورة وأم النضال وأم الجمال نصيب مهم في حديث الجواهري في تلك السهرة الجميلة.

أما الزيارة الثانية فكانت في عام 1950، عندما حضر للمشاركة في حفل تكريم الزعيم اللبناني عبد الحميد كرامي في الذكرى السنوية الأولى لغيابه، حيث ألقى قصيدته المشهورة وفيها تلك الأبيات التي أضحت على لسان كل الناس في كل العهود:

باق . وأعمار الطغاة قصار. من سفر مجدك عاطر نوار

عبد الحميد وكل مجد كاذب إن لم يصن للشعب فيه ذمار

والمجد أن تهدي حياتك كلها للناس لا برم ولا إقتار

والمجد أن يحميك مجدك وحده في الناس لا شرط ولا أنصار

والمجد إشعاع الضمير لضوئه تهفو القلوب وتشخص الأبصار

والمجد جبار على أعتابه تهوي الرؤوس ويسقط الجبار

وكان في مقدمة حضور الاحتفال رئيس الوزراء في ذلك الحين رياض الصلح. وقد اتخذت السلطات قراراً بإبعاد الجواهري بعد أيام من الاحتفال. وأحدث ذلك القرار عند الجواهري هزة عميقة. اذ اعتبر ان ذلك القرار سيحرمه من فرصة الاستمتاع بزيارات لاحقة إلى هذا البلد الذي أحبّه. وهو ما حدث بالفعل. لكن الجواهري صب جام غضبه على أصدقائه الشيوعيين اللبنانيين الذين، بحسب ما يقول في ذكرياته، بالغوا في تكريمه والاحتفاء به إلى الحد الذي جعل السلطات تلجأ إلى إبعاده. ولم يشأ على امتداد سنوات عمره أن يقر بأن الإبعاد لم يتحمل مسؤوليته الشيوعيون. فالمسؤول عنه هو الموقف الشجاع الذي حملته قصيدته تلك. وأثار ذلك الموضوع معي في كل المناسبات التي التقيته فيها. وكنت أوضح له في كل مرة حقيقة ما حصل. وذات مرة أبلغته ما كان رئيس الحكومة اللبنانية رشيد كرامي نجل الزعيم عبد الحميد كرامي قد قاله لي بأن الجواهري مدعو إلى لبنان في أي وقت يشاء وفي أية صيغة. وكان آخر العروض ما أبلغته إياه رسمياً على لسان الرئيس كرامي، عندما التقيت به في عام 1986 في براغ المكان المحبب إليه في منفاه الطوعي والقسري.

كانت زيارة الجواهري الثالثة إلى لبنان في عام 1961، عندما جاء إلى بيروت للمشاركة في تكريم الشاعر اللبناني الأخطل الصغير. وكان قرار المنع ما يزال قائماً. وأذكر أن كل الجهات السياسية والثقافية وبالأخص الشاعر سعيد عقل بذلت كل جهدها لتأمين حضور الجواهري ومشاركته في الاحتفال. وقد ألقى قصيدته التي مطلعها:

لبنان، يا خمري وطيبي هلا لممت حطام كوبي

هلا رددت لسهدها عيني، وقلبي للوجيب

هلا عطفت لي الصبا نشوان يرفل بالذنوب

نزق الشباب عبدته وبرئت من حلم المشيب

وكانت لنا ولكل المثقفين اللبنانيين لقاءات عديدة مع الجواهري خلال تلك الزيارة القصيرة. لكنه ظل يحمل غصة قرار المنع ومرارته، وظل يحملنا نحن أصدقاءه بتعسفه المعروف مسؤولية ذلك القرار.

لم تكن قصيدته تلك في تكريم الأخطل الصغير القصيدة الوحيدة التي غنّى فيها لبنان. فقد حفلت دواوينه بالقصائد "اللبنانية" منذ أوائل الأربعينات من القرن الماضي. لذلك كان حنينه إلى لبنان حنيناً حقيقياً. وكان شعور المرارة الذي أصابه من جراء قرار المنع شعور الحبيب الذي أبعدت عنه حبيبته قسراً

لكن زيارته الرابعة والأخيرة إلى لبنان كانت في أواخر العام 1991 للمشاركة في مؤتمر المعارضة العراقية. وكان له في المؤتمر موقف متميز من نوع المواقف التي اشتهر بها في مناهضة السائد والتمرّد عليه. فقد أعلن يومذاك من على منصة المؤتمر بالشجاعة التي كان يتميز بها وبالوضوح القاطع شجبه غزو العراق للكويت مثل سائر الحاضرين.

لكنه أبدى تحفظاً واستدراكاً بليغين يتعلقان باستنكاره وشجبه الغزو الأميركي للعراق وللمنطقة العربية باسم تحرير الكويت. اذ أطلق الدعوة لمواجهة ذلك الغزو معلناً بشجاعته المعهودة أنه مستعد لأن يكون بين العشرة الأول الذين سيذهبون إلى العراق لمقاتلة الغزاة. وكان لموقفه صدى كبير في صفوف المؤتمرين وفي وسائل الاعلام وعلى الصعيد العربي العام. وحين التقينا في أروقة المؤتمر وخارجه مرات عديدة استعدنا الكثير من ذكرياتنا وناقشنا الكثير من الأمور الثقافية والسياسية. وحرص على أن يبلغنا ويبلغ العالم كله أنه، هو من دون سواه في الشعر وفي الموقف وفي كل شيء، "متنبي" العصر. ولم يكن إعلانه المدوي المتكرر في الأمكنة وفي الأزمنة موضع جدال. ومع ذلك فلم يكن صمت البعض من الشعراء ومن النقاد إلا تعبيراً ما عن الرضى والقبول بذلك الإعلان.

غير أن لقاءاتي تلك مع الجواهري، وسجالاتي المتعددة فيها معه لم تنحصر في زياراته تلك إلى لبنان في مناسباتها وأشكالها. بل لقد أتيح لي أن أسافر كثيراً وأن تسعدني الظروف للقاء معه في أمكنة عدة، وفي فترات زمنية مختلفة ومتباعدة.

ففي العام 1954 ذهبت إلى بغداد موفداً من قبل اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، حيث كنت ممثلاً للشبيبة العربية في قيادته اليومية في بودابست، من ضمن جولة شملت عدة بلدان عربية. وكانت تلك أول زيارة لي إلى بغداد بعد أن غادرتها مع حسين مروة مبعداً في عام 1949. وكانت لي لقاءات عديدة مع الأصدقاء القدامى والجدد وفي مقدمتهم الشاعر الجواهري.

ثم تكررت الزيارة في عام 1960، لحضور المؤتمر العالمي للطلاب. وكان الزمن قد اختلف عن سابقاته بفعل ما أحدثته ثورة الرابع عشر من تموز من تحولات. وكان الجواهري نجم ذلك المؤتمر، اذ ألقى فيه قصيدة يقول في مطلعها:

أزف الموعد والوعد يعن والغد الحلو لأهليه يجن

والغد الحلو بكم يشرق وجه من لدنه، وبكم تضحك سن

والغد الحلو بنوه أنتم فإذا كان لكم صلب فنحن

فخرنا ما كشفناه لكم واكتشاف الغد للأجيال فن

كان الجواهري في قمة مجده في ذلك الحين. إذ كان قد انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء ورئيساً لاتحاد الصحافيين. وكان موضع تكريم في العراق لم يشهد مثله في كل تاريخه. زرته في مقر اتحاد الأدباء والتقينا في أماكن عدة مع عدد كبير من الأصدقاء من مثقفي العراق وسياسييه ومن قادة ثورة الرابع عشر من تموز. وكانت تلك الفترة من أغزر الفترات في تاريخ العراق بالمراهنات على المستقبل وعلى حركة التغيير ليس في العراق وحسب بل في العالم العربي برمته. وأذكر أن مقارنات كانت تعقد في ذلك الحين بين ثورة العراق وثورة كوبا. وكان الترجيح في تلك المقارنات لصالح الثورة العراقية. ولم أكن من أنصار ذلك الرأي. لكن الحجج كانت تنقصني في الدفاع عن موقفي. أما الجواهري فكان، برغم كل ما أحيط به من تكريم وما قدم له من امتيازات، كثير التساؤل قلقاً ومتطلباً. وسرعان ما قادته مخاوفه من المستقبل إلى الاختلاف مع رئيس البلاد وزعيم ثورة الرابع عشر من تموز عبد الكريم قاسم. فهاجر في عام 1961 إلى عدد من البلدان العربية. ثم اختار براغ مكاناً ثابتاً لمنفاه الطوعي.

في منفاه الجميل ذاك في براغ عاش الجواهري حياته بكل تناقضاتها. انغمس إلى أقصى الحدود في عالم الملاهي والحانات. ودخل في مغامرات نسائية بلا حدود، لا سيما مع الفتيات الصغيرات منهن، وهو في السبعين من عمره. وكأنه كان يريد بذلك أن ينسى

آلامه وآلام شعبه. لكن تلك الآلام ظلت تستبد به ولا تفارقه، لا سيما في الفترة الأولى من اغترابه. وهو يصف تلك الفترة في الجزء الثاني من كتابه "ذكرياتي" بكثير من اللوعة. فقد عانى من الأرق الدائم طيلة الأشهر الستة الأولى من حياته في براغ. ونظم في تلك الفترة بالذات قصيدته المشهورة "أيها الأرق" التي يقول فيها:

مرحباً يا أيها الأرق فرشت أنساً لك الحدق

لك من عيني منطلق اذ عيون الناس تنطبق

لك زاد عندي القلق واليراع النضو والورق

ورؤىً في حانة القدر

عتقت خمراً لمعتصر

أنا عندي من الأسى جبل يتمشى معي وينتقل

أنا عندي وإن خبأ أمل جذوة في الفؤاد تشتعل

إنما الفكر، عارماً، بطل أبد الآبدين يقتتل

قائد ملهم بلا نفر

حسرت عنه راية الظفر

في عام 1962 أقيم في بغداد احتفال بألفيتها وألفية الفيلسوف والعالم العربي الكندي. ودعي لحضور الاحتفال عدد كبير من مثقفي العالم من فلاسفة ومؤرخين وعلماء آثار وأدباء وسياسيين. وكان بين المدعوين وفد من مجلس السلم العالمي كنت عضواً فيه بصفتي ممثلاً للجان السلم العربية في سكرتاريا المجلس في فيينا. وكان الوفد برئاسة

البروفسور البولوني دلوسكي عضو هيئة رئاسة المجلس. وكان من بين مهمات وفدنا في العراق المساهمة في توسيع وتعميق علاقة مجلس السلم العالمي بالشخصيات السياسية والثقافية، وجذبها إلى نشاطاته. وكان الاهتمام بالجواهري في رأس قائمة اهتماماتي في هذا المجال وفي رأس اهتمامات رئيس الوفد الذي كنت قد حدثته طويلاً عن الجواهري وعن المثقفين العراقيين وعن الثقافة العربية، بوجه عام. وقد حزنت كثيراً عندما ابلغنا عزيز شريف رئيس حركة السلم العراقية بأن الجواهري موجود في براغ منذ أكثر من عام. وشعرت للتو أن فراغاً كبيراً قد حدث في حياة العراق في ذلك الحين بغياب الجواهري عن البلاد وعن مهرجان الاحتفال بالفية بغداد والكندي، وعن مهمتنا العامة نحن وفد مجلس السلم العالمي وعن مهمتي الشخصية في تلك الزيارة للعراق. لكنني سرعان ما شعرت بأن الجو لم يكن سليماً. وكانت نذر كثيرة تنبئ بأن شيئاً ما سيحدث. فالعلاقات بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين كانت قد دخلت في نفق الخلافات. وكان قاسم قد تحول إلى زعيم فرد من نوع أولئك الذين ترفعهم انتصاراتهم إلى حدود الشعور بالاكتفاء القريب من الألوهية. فينعزلون عن شعوبهم. وسرعان ما يسقطون وتسقط معهم كل تجاربهم وكل أحلامهم وتسقط كل المراهنات عليهم. وقد تبين لي ذلك بوضوح من خلال لقاءين مع عبد الكريم قاسم في تلك المناسبة، اضافة إلى ما أسمعني إياه الأصدقاء من الأخبار والتقديرات، بما في ذلك من الذين كانوا في أقرب المواقع إلى قاسم سياسياً وأمنياً.

سارعت لدى عودتي إلى فيينا لترتيب لقاء مع الجواهري في براغ. وكنا في ذلك العام (1962) في مجلس السلم العالمي نعد لمؤتمر عالمي لنزع السلاح يعقد في موسكو في الصيف. لذلك فقد حملت معي للجواهري دعوة للمشاركة في ذلك المؤتمر. فلبى الدعوة بفرح. وكان في المؤتمر الذي ضم خمسة آلاف شخصية من 120 بلداً، واحداً من عديدين من كبار مثقفي العالم العاملين في مجال الدفاع عن السلم والنضال من أجل نزع السلاح.

وكان من بين أبرز المثقفين العرب إلى جانب الجواهري ميخائيل نعيمة وحسين مروة من لبنان وخالد محي الدين من مصر. وقد قدم الجواهري للمؤتمر قصيدته المعروفة: "أطفالي وأطفال العالم"، التي يقول فيها:

لي طفلتان أقنص الخيالا

عبريهما والعطر والظلالا

أسوء حالاً كي تسيرا حالا

طفلان... سلني تعرف الأطفالا

أحمل من أجلهما أثقالا

لم أستطع قبلهما احتمالا

إنهما وقد أريح الغيهب

قد أبصرا أن الحمام يلعب

جناحه عند الأصيل مذهب

يجيء في غمامة ويذهب

أهل لأطياف المنى ومرحب

وكثرت لقاءاتي مع الجواهري عندما استقر في سوريا. وكان آخر لقاء لي معه قبل وفاته بثلاثة أعوام في ربيع عام 1994. حضر اللقاء ابنه كفاح وإحدى بناته وزوجها جمال الجواهري. كان الجواهري قد بدأ يشعر بتعب السنين وثقلها. كان نظره قد بدأ

يضعف إلى الحد الذي لم يكن قادراً معه على ممارسة القراءة والكتابة. إلا انه أصر يومها أن يهديني الجزء الثاني من كتابه "ذكرياتي" مع إهداء بخط يده. وكتب في هذا الإهداء كلمات جميلة كان من الصعب علي أن أفك رموزها، إذ كان يكتب من دون أن يرى ما يخطه قلمه.

امتدت تلك الجلسة الحميمة الأخيرة بيني وبين الجواهري حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان الجواهري يريدها أن تلاصق الصباح، ربما لإحساس غامض عنده وعندي بأنها ستكون جلسة الوداع. ألح عليّ بالبقاء، وألححت بالانصراف خوفاً عليه من إرهاق السهر ومن تدفق الذكريات ومن مرارة الشعور بعبء السنين، وما ولده طول العمر من وهن طال كل عناصر الحياة في جسده وفي أكثر الأعضاء حساسية في ذلك الجسد عينه. وقد شكا لي بمرارة ما آلت إليه حاله من ضعف في النظر. اذ كيف يكون حال الشاعر إذا ما هو فقد القدرة على القراءة؟ لكن ذهنه كان كعادته شديد التوقد. وكانت ذاكرته ما تزال تحتفظ بقوتها وحدتها وحيويتها. تذكرنا أحداثاً كثيرة. وتلا بعضاً من أشعاره ومن الأشعار التي كان يحبها لكبار شعراء العصور العربية القديمة. وانتشى وغمره الفرح حين أخبرته بأنني من عشاق الشعر العربي القديم، وأن البحتري كان شاعري المفضل في مرحلة دراستي الثانوية. وكان سبب دهشته يعود إلى أنه كان يعتبر البحتري شاعره المفضل بامتياز. فالبحتري، كما يقول الجواهري، هو من الشعراء الذين يكتبون الشعر السهل الممتنع. ويضيف الجواهري بأن البحتري هو، من بين الشعراء الكبار، الوحيد الذي لم يستطع تغيير قافية واحدة من قوافيه. وفي دواوين الجواهري قصيدة يخص بها "البحتري" وقصيدة يخص بها "المتنبي"، وقصيدة ألقاها في ألفية "أبي العلاء المعري". وهي قضائد تؤكد علاقته الوثيقة بجذور الشعر العربي. وكان ديوان "الجمهرة" الذي وضع فيه مختارات من الشعر العربي أحد أشكال التعبير عن انتمائه إلى تلك الجذور وعن وفائه لها وعن الاسهام في

اغنائها. وكان قد بدأ يصدر كراريس يضم كل واحد منها مختارات منتقاة بعناية من دواوين الشعراء الذين أحبهم. وكانت المختارات من شعر البحتري أولى تلك الاصدارات. لكنه لم يتمكن من اكمال تلك السلسلة بسبب العجز الذي أصابه في سنوات عمره الأخيرة.

إلا أن لعلاقة الجواهري بالبحتري مكاناً متميزاً في حياته أفرد له فصلاً خاصاً في الجزء الثاني من كتابه "ذكرياتي". فهو يروي في ذلك الفصل تاريخ علاقته بالبحتري ويشعره. ويشير إلى العناصر المتميزة في هذا الشعر. كما يروي قصة محاولته التي لم تتحقق في اعادة تصنيف ديوان البحتري و"نظم سلاسله الذهبية لتطبق على مراحل حياته وتصاعدها ومفارقاتها بدلاً مما كان عليه من ترتيب لا طائل فيه ولا دلالة على تصوير حياة البحتري نفسه ولا على تطورها ولا على مدى معاناته فيها، كما هو الأمر الأصح والأجمل في ما كان من أمر تصنيف ديوان المتنبي على سبيل المثال".

ويتابع الجواهري في ذلك الفصل تأكيده على تميز البحتري، بما في ذلك بالمقارنة مع المتنبي: "ولئن كان البحتري أقل اشغالاً للناس وإملاء للدنيا من "المتنبي" للبون الشاسع بين الشخصين والموقفين والحياتين والمزاجين فهو كان، ومن مدخل آخر، الأكثر اشغالاً وإملاء للطبقات الخاصة المعنية والمتفردة بعنايتها بأمر الشاعر الفنان والشاعر الرسام وبخاصة بالشاعر الذي يحتل المكانة الأولى والعليا في ذلك كله. لقد كنت وما أزال وبما يشبه جمع المتناقضين، وأنا الأقرب إلى المتنبي في كل خصائصه ومفارقاته ومغامراته، لا أحرص على كل دواوين شعراء دنيا العرب من يوم حفظت الشعر وفهمته بمثل ما أحرص وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً على أن يكون "ديوان البحتري" معي في أي رحلة من رحلات العمر مهما قصرت لأيام وأسابيع أو طالب لشهور أو سنين. بل وعليّ أن أعيد وأعيد البيت والبيت والقطعة والقطعة والقصيدة والقصيدة وكأنني أتعرف عليها من جديد. وما تزال

محفوظة عندي النسخة النادرة بمراجعة العلامة "الشدياق"، التي عنيت فيها بما قد لا يخطر على بال حتى المعنيين بـ البحتري نفسه، وذلك بأن أجمع فيها من فرائد البحتري ما هو مضرب من مضارب الأمثال السائرة والتي يفترض أن تبقى على أفواه الناس في كل ما يعن لهم من حال أو حال وموقف أو آخر بأكثر بكثير مما هو على أفواههم من أمثال المتنبي، لو لم تتغلب على البحتري بل أن تظلمه سبيكة الذهب من روعة الحرف وبساطته وعمقه...".

لقد كانت تلك الجلسة آخر لقاء لي مع الجواهري. وكانت من أجمل اللقاءات الحميمة التي حرص أكثر من مرة أن يؤكد لي فيها عمق الصداقة التي تربطه بي شخصياً وبصديقه التاريخي حسين مروه. وقد حزن كثيراً عندما أخبرته بأن نزار، الأديب والفنان، نجل حسين مروه، قد توفي قبل ذلك التاريخ بعامين. وكان قد قرأ لي مقالاً كتبته بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، عن أثر الثورة الفرنسية وأفكارها في شعر وأدب الجواهري ورئيف خوري، رغم انتمائهما في السياسة وفي الفكر إلى أفكار الثورة الاشتراكية. وأخبرني أنه أعجب بالمقال. لكنه لم يجادل فيه. فلم أعرف إذا كان موافقاً على ما تضمنه المقال من رأي غير مألوف عن علاقته بالثورة الفرنسية وتأثيرها على أفكاره!

التمرد في شعر الجواهري موجود في كل شعره حتى في القصائد التي كرسها لمناجاة الطبيعة وللتعبير عن مشاعره وعن انفعالاته الوجدانية، بل حتى في غزله العاطفي منه والمجوني. وهو قد بدأ تمرده منذ شبابه الباكر، حين خرج من المدرسة الدينية وعليها في النجف وخلع زي رجل الدين ودخل في سلك التعليم. لكن تمرده الأهم كان في المرحلة التي بدأ يمارس فيها كتابة الشعر. ومن قصائده المشهورة لتلك الفترة المبكرة قصيدته عن ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق التي يقول في مطلعها:

لعل الذي ولى من الدهر راجع فلا عيش ان لم تبق إلا المطامع

هو الدهر قارعه يصاحبك صفوه فما صاحب الأيام إلا المقارع

وفي تلك الفترة الممتدة ما بين عام 1920 وعام 1930 كتب الجواهري عدة قصائد تحمل النفس ذاته. اقتطع من قصيدة "النقمة" الأبيات التالية:

قد كنت أقرب للرجاء فصرت أقرب للقنوط

كل البلاد إلى صعود، والعراق إلى هبوط

في كل يوم مبدأ، أواه من هذا السقوط

ويقول الشاعر في قصيدته "الرجعيون":

ستبقى طويلاً هذه الأزمات اذا لم تقصر عمرها الصدمات

اذا لم ينلها مصلحون بواسل جريئون فيما يدعون كفاة

ويقول في قصيدة "سبيل الجماهير":

لو أن مقاليد الجماهير في يدي سلكت بأوطاني سبيل التمرد

اذن علمت أن لا حياة لأمة تحاول أن تحيا بغير التجدد

لو الأمر في كفي لجهزت قوة تعود هذا الشعب ما لم يعود

لو الأمر في كفي لأعلنت ثورة على كل هدام بألفي مشيد

على كل رجعي بألفي مناهض يرى اليوم مستاء فيبكي على الغد

لم يترك الجواهري معركة في البلاد العربية إلا وكان له فيها دور وموقف من خلال شعره. ولم يكتف بالعالم العربي، بل هو ذهب إلى العالم الأرحب. اذ كان يعتبر نفسه جزءاً من ثورة عالمية من دون أن يدخل في تفاصيل شؤونها الفكرية والسياسية. لكنه وجد له مكاناً أكيداً فيها، كشكل من أشكال التعبير عن أمميته بمعنى الانتماء إلى الانسانية والى القوى المناضلة من أجل التحرر والتقدم في العالم. وأبرز ما كتب من شعر في هذا الميدان وصفه لانتصارات الجيش الأحمر على النازية والقضاء عليها في عقر دارها في برلين. يقول في قصيدة "ستالينغراد":

يا عروس "الفلغ" والفلغا دم ساءت البلوى فأحسنت البلاء

صبغ "الدون" دماءين هما بعد بين الرجس والطهر التقاء

وجرت أمواجه حاملة فوقها الضدين صبحاً ومساء

وعلى الجرفين "عظمان" هما رمز عهدين انحطاطاً وارتقاء

يا ابنة النهرين دومي شبحاً لقوي وضعيف يتراءى

للمهينين عقاباً وجزاء والمهانين انتفاضاً وإباء

يا "تولستوي" ولم تذهب سدى ثورة الفكرة ولا طارت هباء

يا ثريا وهب الناس الشراء قم تر الناس جميعاً أثرياء

قم تجدهم مالكي غلتهم من على عهدك كانوا الأجراء

هكذا (الفكرة) تزكو ثمراً إن زكت غرساً، وإن طابت نماء

إلا أن الكتابة عن الجواهري، حتى في حدود هذه التداعيات من الذكريات، تبقى ناقصة إذا هي لم تشر ولو بإيجاز إلى موقع المرأة في شعره. وللمرأة في شعر الجواهري موقفان: يتمثل الأول في الموقف المتقدم الذي اتخذه الجواهري من حقوق المرأة منذ وقت مبكر جداً. وله في الدفاع عن حق المرأة في التعليم قصيدة بعنوان: "علموها"، كتبها في عام 1929، وفيها يقول:

علموها فقد كفاكم شنارا وكفاها أن تحسب العلم عارا

وكفانا من التقهقر أنـا لم نعالج حتى الأمور الصغارا

هذه حالنا على حين كادت أمم الغرب تسبق الأقدارا

أنجب الشرق جامداً يحسب المر أة عاراً وأنجبت طيـارا

تحكم البرلمان من أمم الدنيا نـساء تمثل الأقطارا

ونساء العراق تتمتع أن ترسم خطاً أو تقرأ الأسفارا

ويثابر الجواهري على هذا الموقف الداعي إلى تحرير المرأة والممجد لدورها حتى آخر لحظة في حياته. وهو يغنتم مناسبة الحفل الذي أقامته الطالبات العراقيات في براغ احتفالاً بيوم المرأة العالمي في عام 1962 ليؤكد موقفه هذا بأكثر ما يمكن من الوضوح. فهو يقول في القصيدة التي ألقاها في هذه المناسبة:

إنا وكل جهودنا للخير رهن جهودهنه

وحدود طاقات الرجا ل لصيقة بحدودهنه

وصمودنا في النائبا ت مرده لصمودهنه

بنحوسهن نحوسنا وسعودنا بسعودهنه

التضحيات الغر صن ع شموخهن وجهودهنه

أما النوع الآخر من قصائد الجواهري في المرأة فهو الذي يظهر فيه الشاعر عاشقاً بكل جوارحه وبكل أحاسيسه وبكل عواطفه من دون أي حرج من تقاليد أو من قوانين. فهو يستسلم لكل تلك الأحاسيس والمشاعر والعواطف والغرائز. وفي هذه القصائد يبرز مجونه الذي لا حدود له لا في الأمكنة ولا في الأزمنة ولا في العمر الذي ظل بالنسبة إلى الجواهري حتى على أعتاب التسعين عمر شاب متقدم في السن ينبض فؤاده بالحياة وبالحرارة وبالدفء، وبالشبق وبالمجون.

أولى قصائده التي تضمها دواوينه المنشورة كتبها الشاعر في عام 1921 وعنوانها: "ذكريات الوئام". يقول الجواهري في هذه القصيدة:

وليل ذكرت به صبوتي فعدت إلى الزمن الاول

تجردت عن تبعات الجدود وبت عن الغير في معزل

قست شهبه عن شكاة الهوى وحدقن شزراً ولم تحفل

أبث لها هم عصر مضى فتبسم عن عصري المقبل

سهرنا وشتان ما بيننا وأين من المستهام الخلي!

أمان تسامت فمن أجلها حياتي، وفي شرحها مجملي

وآنست في جنحه وحدتي فبت كأني في محفل

سكون الدجى وجلال الغرام جناحان للشاعر الأعزل

أما قصيدة "جربيني" فلها قصة في حياة الجواهري رواها في كتابه "ذكرياتي". فقد كان حين كتبها ونشرها موظفاً في بلاط الملك فيصل الأول. لم يوقعها باسمه الحقيقي. واختار له اسماً مستعاراً. ولم يمض وقت قصير حتى انفضح أمره. فاستدعاه الملك فيصل لمعاتبته من دون أن يعاقبه. إلا أنه فضل ترك الوظيفة طلباً للحرية. يقول الجواهري في هذه القصيدة:

جربيني من قبل أن تزدريني وإذا ما ذممتني فاهجريني

ويقيناً ستندمين على أنك من قبل كنت لم تعرفيني

لا تقيسي على ملامح وجهي وتقاطيعه جميع شؤوني

أنا لي في الحياة طبع رقيق يتنافى ولون وجهي الحزين

قبلك أغتر معشر فرأوني من جبين مكلل بالغضون

وفريق من وجنين شحوبي ن وقد فاتت الجميع عيوني

اقرأيني منها فقيهاً مطاوي النفس طراً وكل سرّ دفين

فيهما رغبة تفيض وإخلاص وشك مخامر لليقين

فيهما شهوة تثور، وعقل خاذلي تارة وطوراً معيني

فيهما دافع الغريزة يغريني وعدوى وراثة تزويني

وعندما بلغ التسعين من العمر كتب في براغ قصيدة بعنوان: "لجاجك في الحب لا يجمل":

لجاجك في الحب لا يجمل وأنت ابن "سبعين لو تعقل

تقضي الشباب، وودعته ورحت على اثره ترقل[4]

مضى منك فيه ربيع الحياة ومات به نصفك الأفضل

بكفيك واريته لحده وطلت على "لحده" تعول

وها أنت تستقبل الماضيات لو أن الذي فات يستقبل

تعلل نفساً بأطيافها وموعظة لك من عللوا[5]

كأعمى أضل سواء السبيل وحيداً، وقد فاته المنزل

والمجون في شعر الجواهري وفي الجزء البوهيمي من حياته هو الوجه الآخر للعشق الحقيقي، والتعبير الحقيقي عن حبه العميق للحياة. وهو شكل من أشكال التمرد على بيئته النجفية المحافظة المتزمّتة، التمرد الذي جاء متأخراً بعض الوقت واستمر طيلة حياته. على أن الجواهري يروي قصة أول عشق عنيف وقع فيه وعانى منه. كان لا يزال في الثامنة من عمره في حين كانت معشوقته ابنة الجيران تكبره بعشر سنوات. وترافق الإحساس بالمرأة عنده مع بداية الإحساس بعلاقته الفطرية بالشعر. وكانت العلاقة بين المرأة والشعر من جهة، والنزوع إلى الحرية والتمرد من جهة ثانية، هي علاقة طبيعة في

[4] ترقل : أرقل أسرع.

[5] الموعظة، هنا : العبرة.

حياة الفنان الذي هو هنا الشاعر الجواهري. وتؤكد هذه العلاقة المتعددة النزعات كل حياة الجواهري، كشاعر وكثائر وكإنسان.

كان الجواهري في شعره وفي حياته كلها وفي المعارك التي انخرط فيها في العراق وفي خارج العراق حول قضايا بلده، وحول قضايا الأمة العربية، وحول قضايا الانسان بعامة. وهي ملحمة لا ينفصل فيها أي عنصر عن العناصر الأخرى المكونة لها. ولا تنحصر ساحات المواجهة فيها بجانب واحد من الهموم التي تواجه البشر ولا سيما المبدعين منهم. لذلك فإن القارئ لملحمة الجواهري سيجد نفسه بالضرورة أمام لحظات لا هم فيها للشاعر سوى همه الشخصي، المتمثل في نزوة هنا وفي هاجس هناك وفي أزمة وجدانية هنالك وفي أوهام تستبد به وتطغى على أفكاره تؤجهها دائماً نرجسية تبلغ حد الهوس أو ما يشبهه. من هنا مصدر التحذير الذي بدأت به هذه التداعيات عن ذكرياتي مع الجواهري، التحذير الذي أشير فيه إلى أن عالم هذا الشاعر الكبير يتسع لكل التناقضات. فهو عالم شاعر وسياسي وفنان وفرد متمرد على الذات وعلى الآخرين، ومتمرد على أشياء الوجود والمجتمع. لذلك فإن دخول هذا العالم الشاسع يتطلب شروطاً أهمها تجنب الخلل في القراءة وفي النظر، بحيث لا يطغى جانب منها على جانب آخر فيلغيه. جميع الجوانب في حياة الجواهري ينبغي أن تكون حاضرة في أي نوع من أنواع الكتابة عنه، بما في ذلك عن شعره وعن نوع هذا الشعر وعن مصادر الجمال والابداع وشروطهما فيه. وإذا كنت قد أوغلت في قراءتي للجواهري في الجانب السياسي من سيرته فإن ما حصن قراءتي هذه من الخلل هو أنني استعنت بشعره في نماذج استللتها من قصائده ومن الأحداث والمناسبات التي نظمت فيها تلك القصائد. ولعل الجواهري ذاته هو الأقدر على تحديد سمات شخصيته أكثر منا نحن معارفه وأصدقاءه وقراءه ومتابعي سيرة حياته. فهو يقول في الجزء الأول من كتابه "ذكرياتي"، كما لو أنه يرد على كل الذين

ينتقدون تناقضات حياته، يقول: "وأقولها عن تفكر ومحاولة تطبيق للواقع على الواقع، إنني، بالرغم مما قد يفترض في كل ما مررت به من مفارقات قد تبدو وكأنها متناقضات، بالرغم من كل هذا، وبعد التمحص للنفس، وبعد محاسبتين إياها، وبعد جهد جهيد في أن أكتشف مخلفاتها وأسرارها، أسرار كل ما كان منها وبواعثه، فلا أجدني إلا وجهاً واحداً، إلا شخصاً واحداً، منسجماً مع نفسه، مهيأ لكل ما كان منه، مخلوقاً من النطفة لكي يكون ما كان. ."

وإذا كان لا بد من الحديث عن شعر الجواهري من الناحية الفنية، وهو ميدان لا أحب ولا أحسن الدخول فيه، فباستطاعتي القول ببساطة من دون ادعاء المعرفة بالنقد الأدبي بأن للجواهري مدرسته الشعرية الخاصة به. وهي مدرسة برزت معالمها ومكوناتها وسماتها الخاصة منذ البدايات. وهو في أي حال لا ينكر في كل ما كتبه وما قاله في أحاديثه التي لا تحصى تأثره بشعراء سابقين عليه مثل الحبوبي وابن عمته علي الشرقي. ولا يخفي إعجابه بأحمد شوقي، وتقديره للجانب الكفاحي في شعر حافظ ابراهيم وشعر معروف الرصافي، وتقديره للشعراء الجدد، مثل بدر شاكر السياب العراقي وابراهيم ناجي المصري من جماعة "أبولو"، وسعيد عقل اللبناني وعبد الرحمن الشرقاوي المصري، لا سيما في مسرحيته الشعرية "الفتى مهران".

واذا كان ثمة ما يوحي بأن الجواهري لم يقرأ كثيراً مصادر الفكر الاشتراكي الذي أنتمي إليه بصورة واضحة كما تدل على ذلك أفكاره وآراؤه، فإنه يؤكد بالمقابل انه كان من قراء شبلي الشميّل وسلامة موسى الاشتراكيين، وأنه كان من المعجبين بطه حسين. إلا إنه، في تقديري، كان أقرب إلى أفكار الثورة الفرنسية، وإلى أفكار الاشتراكية الطوباوية منه إلى الاشتراكية التي تبناها الشيوعيون. لكنه كان حريصاً على استقلاليته. وهل بمقدور شاعر مثل الجواهري أن يكون أكثر من فنان ملتزم يتمتع بالاستقلال وبالحرية؟ وعبقريته

هي محصلة التزاوج بين ثورية رجل الدين الخارج من تلك الصفوف، المتمرد على بيئته وتربيته وعلومه الدينية ومعاييرها، وبين التمرد على الأنظمة والتقاليد البالية والثائر ضد الظلم والظالمين والمنغمس في الحياة يغرف منها ويعطيها من ذاته بدون حدود.

هذا هو الجواهري كما عرفته وتلك هي قراءتي لملحمته التي أوحت لي بها معرفتي به من قرب، وعلاقتي معه التي امتدت على مدى خمسين عاماً.